الفصل السادس

من ثمار التوكل على الله

التوكل على الله تعالى : شجرة طيبة ، لا تؤتى إلا ثماراً طيبة ، فى النفس وفى الحياة : حياة الفرد ، وحياة الجماعة من خلاله .

● **السكينة والطمأنينة :**

١ - أُولى هذه الثمار : سكينة النفس ، وطمأنينة القلب ، التى يشعر بها المتوكل على ربه ، ويحس بها تملأ أقطار نفسه ، فلا يحس إلا الأمن إذا خاف الناس ، والسكون إذا اضطرب الناس ، واليقين إذا شك الناس ، والثبات إذا قلق الناس ، والأمل إذا يئس الناس ، والرضا إذا سخط الناس .

إنه أشبه بجندى أوى إلى حصن حصين ، فيه فراشه وطعامه ، وذخائره وسلاحه ، يَرى منه ولا يُرى ، ويَرمى ولا يُرمَى ، فلا يهمه ما يدور فى الخارج من صخب الألسنة ، أو اشتجار الأسنّة .

إنها الحالة التى وجدها موسى عليه السلام ، حين قال له أصحابه : « إنَّا لمدركون » ﴿ قَالَ كَلَّا ، إنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ (١) .

إنها الحالة التى وجدها النبى ﷺ فى الغار حين أشفق عليه أبو بكر ، فقال له : ﴿ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ (٢) .

إنها الحالة التى وجدها إبراهيم الخليل حين أُلقى فى النار ، فلم يشتغل بسؤال مخلوق من إنس أو مَلَك ! ولم يشتغل إلا بقوله : حسبى الله ونِعْمَ الوكيل (٣) .

---

(١) الشعراء : ٦٢ (٢) التوبة : ٤٠

(٣) انظر : ما كتبته فى فصل : « سكينة النفس » من كتابى « الإيمان والحياة » .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين أُلقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١) .

دخلت مرة أحد المساجد فى مدينة استانبول ، فوجدتُ فيه بيتين من الشعر كتبا بخط جميل ، فحفظتهما . يقول الشاعر :

فوحقه لأسلِّمنّ لأمره ... فى كل نازلة وضيق خناق !

موسى وإبراهيم لما سلما ... سلما من الإغراق والإحراق !

إنها الحالة التى وجدتها هاجر حين وضعها إبراهيم مع ابنها إسماعيل بواد غير ذى زرع ، فى مكة عند مكان البيت المحرَّم ، ولا أنيس ولا جليس ، ثم ودعها قافلاً ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم : قالت : هو إذن لا يضيعنا !

* *

● **القـوة** :

٢ - ومن هذه الثمار : القوة التى يحس بها المتوكل على الله . وهى قوة نفسية روحية ، تصغر أمامها القوة المادية ، قوة السلاح ، وقوة المال ، وقوة الرجال (٢) .

وفى حديث ضعيف : « مَن سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله ، ومَن سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومَن سرَّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده » (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٧٣

(٢) انظر : فصل « القوة » من كتابى « الإيمان والحياة » .

(٣) رواه الحاكم فى « المستدرك » (٤/ ٢٧٠) ، وابن أبى الدنيا فى التوكل ، والطبرانى ، وأبو نعيم ، وأبو يعلى ، والبيهقى فى الزهد ... وغيرهم عن حديث ابن عباس ، ورمز =

نجد ذلك واضحاً فى موقف شيخ الأنبياء نوح ، وقد كذَّبه قومه ، واتهموه بالجنون ، وأصرُّوا واستكبروا استكباراً ، واتبعوا مَن لم يزده ماله وولده إلا خساراً ، فواجههم بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ إن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّن أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

ونلمس هذه القوة فى موقف نبى الله هود أمام قومه عاد الذين أنكر عليهم شركهم وفسادهم وتجبرهم ، وهم الذين بنوا بكل ريع آية يعبثون ، واتخذوا قصوراً ومصانع لعلهم يخلدون ، وإذا بطشوا بطشوا جبَّارين ، وهم الذين استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : مَن أشد منا قوة ؟

لقد جابههم هود عليه السلام ودعاهم إلى التوحيد والاستقامة وتقوى الله فـ ﴿ قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (٢) . ولم يبال هود بهذا الهراء ووقف يقول فى يقين القوى ، وقوة الموقن : ﴿ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ ، فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ، مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ، إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (٣) .

= السيوطى لحسنه فى الجامع الصغير ، ولكن ذكر الذهبى أن فيه راوياً متروكاً ، وآخر متهماً بالكذب . وحسبه أن يكون من كلام بعض السَّلَف .

(١) يونس : ٧١ - ٧٢ (٢) هود : ٥٣ - ٥٤ (٣) هود : ٥٤ - ٥٧

فهو يقف موقف التحدى للمشركين وآلهتهم المزعومة ، معتمداً على ربه ورب كل شيء ، فهم جميعاً فى جانب ، وهو وحده فى جانب ، معهم القوة والعدد ، وليس معه من الخلق أحد ، بَيْد أن معه القوة التى لا تُقهر ، قوة الله الغالب ، الآخذ بناصية كل دابة ، الحكيم فى صنعه وتدبيره ، فلا يفعل شيئاً عبثاً ، ولا يدع شيئاً اعتباطاً : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ونشاهد هذه القوة فى موقف سيدنا شعيب ، حين ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١) .

ونبصر هذه القوة فى موقف المؤمنين من أصحاب « طالوت » ، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (عدة أهل بدر) وقد لقوا عدواً أكثر عدداً وعُدة ، وهو « جالوت » وجيشه الكثيف ، حتى قال مَن قال من رجال « طالوت » : ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ (٢) . وهنا تجلَّى توكل الفئة المؤمنة وقوتها النفسية : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُواْ اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (٣) .

وندرك هذه القوة فى موقف صحابة رسول الله يوم الأحزاب ، وقد تجمعت جيوشهم وحاصرت المدينة ، فلم يفتّ ذلك فى عضد المسلمين ، بل

---

(١) الأعراف : ٨٨ - ٨٩ (٢) البقرة : ٢٤٩ (٣) البقرة : ٢٤٩ - ٢٥١

كانوا كما وصفهم الله : ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُواْ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ (١) . ثم ذكر لنا نموذجاً منهم فقال : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ (٢) .

وأعظم من ذلك : موقفه صلى الله عليه وسلم ، وهو يحفر الخندق ، ثم هو يعد أصحابه بفتح اليمن ، وفتح مملكتى كسرى وقيصر . وهو ما جعل أهل النفاق يتندرون ويسخرون : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (٣) .

وكذلك كان شأن المنافقين أبداً . يتهمون المؤمنين من أصحاب النبى الكريم بالتهور والغرور ، وذلك لأنهم لا يبالون بعدد عدوهم ولا عدته ، متوكلين على الله تعالى . يقول القرآن فى سورة الأنفال التى عقب فيها على غزوة بدر : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤) .

أجل . . عزيز لا يذل من لاذ بجنابه ، حكيم لا يضيع مَن وثق بتدبيره .

وفى جهاد عصرنا رأينا الفئة القليلة تنتصر على الفئة الكثيرة بالتوكل على الله تعالى ، والحرص على الشهادة فى سبيل الله . كما فى حرب الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى ، وكما فى جهاد أفغانستان ضد الغزو الشيوعى السوفييتى ، وكما فى صمود إخوتنا فى البوسنة ضد العدوان الصربى .

لقد بدأ الإخوة فى أفغانستان جهادهم بعدد قليل من المسدسات والبنادق

---

(١) الأحزاب : ٢٢ (٢) الأحزاب : ٢٣

(٣) الأحزاب : ١٢ (٤) الأنفال : ٤٩

القديمة ، معتمدين على الله تعالى أن يشد أزرهم ، ويوفقهم لأخذ السلاح من عدوهم . وما زالوا يقاتلون بإمكاناتهم المحدودة ، حتى هيأ الله لهم الأسباب التى تمدهم بالسلاح ، حتى من أعتى قوى الكفر ، التى لا تريد خيراً للإسلام . فقد خوَّف الله بعضهم من بعض ، وكان من وراء ذلك خير للمسلمين . وهذا ما كان يدعو به بعض السَّلَف : اللَّهُمَّ اشغل الظالمين بالظالمين ، وأخرجنا من بينهم سالمين .

* *

● **العـزَّة :**

٣ - ومن ثمار التوكل : العزَّة ، التى يحس بها المتوكل ، فترفعه مكاناً عليا ، وتمنحه مُلكاً كبيراً ، بغير عرش ولا تاج ، وهى قبس من عزَّة المتوكَّل عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

فالمتوكل هنا عزيز بغير عشيرة ، غنى بغير مال ، ملك بغير جنود ولا أتباع .

أجل هو ملك ، ولكنه من ملوك الآخرة ، لا من ملوك الدنيا . فملوك الدنيا يشعرون بحاجتهم إلى مَن حولهم من الأتباع والأنصار ، كما يشعرون بالخوف على مُلْكهم أن يزول بالكيد من الداخل ، أو بالغزو من الخارج ، أو بالموت الذى لا يفرق بين ملك وسوقة .

أما ملوك الآخرة فقلوبهم معلَّقة بالله تعالى ، لا يرجون إلا رحمته ، ولا يخافون إلا عذابه . فهم كما وصفهم الشاعر :

عبـيد ، ولكن الملـــوك عبيدهم وعبدهمو أضحى له الكون خادما !

قال أحد الخلفاء لأحد علماء السَّلَف الصالح يوماً : ارفع إلينا حوائج دنياك نقضها لك ! قال : إنى لم أطلبها من الخالق ، فكيف أطلبها من المخلوق ؟!

---

(١) الشعراء : ٢١٧ (٢) الأنفال : ٤٩

يريد أن الدنيا أهون عنده من أن يسألها من الله تعالى ، فهو إذا سأل ربه يسأله ما هو أعظم وأعلى من الدنيا ، وهو الآخرة والجنَّة ورضوان الله تبارك وتعالى .

ولذا كان بعض الصالحين يقول عن أُمراء زمانه : اللَّهُمَّ أغننا عنهم ، ولا تغننا بهم !

إن العزَّة لا تُطلب عند أبواب السلاطين ، بل هى لا تُطلب إلا من باب واحد ذكره القرآن فقال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ (١) .

وبيَّنَ أن طلب العزَّة من عند غيره إنما هو شأن المنافقين المدخولين فى إيمانهم : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ (٢) .

وروى ابن عطاء الله عن شيخه أبى العباس المرسى أنه سمعه يقول : « والله ما رأيت العزَّ إلا فى رفع الهمة عن الخلق » .

قال : وكان يقول رحمه الله : « للناس أسباب ، وسببنا نحن الإيمان والتقوى . . قال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ » (٣) .

يعنى : وليس من الإيمان والتقوى مد الأيدى ولا الأعين إلى ما عند الخلق .

قال ابن عطاء الله : « اعلم أن رفع الهمة عن الخلق ، شأن أهل الطريق ، وصفة أهل التحقيق » .

قال : « وكان بعض العارفين ينشد :

حرام على من وحّـــد اللهَ ربَّه وأفرده أن يجتدى أحداً رِفـــدا !

---

(١) فاطر : ١٠ (٢) النساء : ١٣٨ - ١٣٩ (٣) الأعراف : ٩٦

ويا صاحبى قف لى مع الحق وقفة أموت بها وَجْداً ، وأحيا بها وُجدا !

وقل لملوك الأرض تجهد جَهدهـا فذا المُلك مُلك لا يُباع ولا يُهـدى !

يقول ابن عطاء الله : « ورفع الهمة إنما ينشأ عن صدق الثقة بالله .

وصدق الثقة بالله إنما ينشأ عن الإيمان بالله على سبيل المعاينة والمواجهة فيوجب لهم إيمانهم الاعتزاز بالله ، قال الله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

والنصر من عند الله ، قال سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نصرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

والنجاة من العوارض الصادّة عن الله ، قال الله سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

فعز المؤمن بالله ثقته بمولاه ، ونُصْرته على نفسه وهواه ، ونجاته من العوارض أن تقطعه عن سبيل هداه .

وشعار أهل الإرادة ودثارهم : الاكتفاء بالله ، ورفع الهمة عما سواه ، وصيانة ملابس الإيمان من أن تدنس بالميل إلى الأكوان ، والطمع فى غير الملك المنان .

ولنا فى هذا المعنى :

الله يعلـــم أننى ذو همـــة تأبى الدنايا عفـــة وتطـــرفا

لِمَ لا أصون على الورى ديباجتى وأريهمُو عز الملوك وأشـرفا ؟

أأريهمـــو أنى الفقير إليهمـــو وجميعهم لا يستطيع تصـرفا ؟

أم كيف أسأل رزقه من خلقه ؟ هذا - لعمرى إن فعلت - هو الجفا

---

(١) المنافقون : ٨ (٢) الروم : ٤٧ (٣) يونس : ١٠٣

شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله عجز أقام بحامليه على شـفا

فاســـــترزق الله الذى إحسانـه عمَّ البـــــرية منَّة وتعطفـــا

والجأ إليه تجـــــدْه فيمـــا ترتجى لا تعدُ عن أبوابه متحرفـــا

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله : علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلا وقد كفاك ، ومنحك وأعطاك ، ولم يُبق لك حاجة عند غيره » (١) .

ومن أقوال ابن عطاء الله هنا :

« قبيح منك أن تكون فى دار ضيافته ، وتوجه وجه طمعك لغيره » !

« لا تتطلب ممن هو عنك بعيد ، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد »

ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٣) .

وقال سبحانه : ﴿ وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ (٤) .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ (٥) .

كل ذلك ليجمع همم عباده عليه ، وكيلا يرفعوا حوائجهم إلا إليه » ! (٦) .

* *

---

(١) انظر : « لطائف المنن » لابن عطاء الله السكندرى . (٢) البقرة : ١٨٦

(٣) غافر : ٦٠ (٤) النساء : ٣٢ (٥) الحجر : ٢١

(٦) انظر : « لطائف المنن » لابن عطاء السكندرى . بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٠٤ - ٢٠٩

● **الرضا :**

٤ - ومن ثمرات التوكل على الله « الرضا » الذى ينشرح به الصدر ، وينفسح له القلب . قال : بعضهم : « متى رضيت بالله وكيلاً ، وجدت إلى كل خير سبيلا » .

وبعضهم جعل « الرضا » جزءاً من ماهية التوكل ، أو درجة من درجاته .

قال بعضهم : « التوكل هو الرضا بالمقدور » .

وقد ذكرنا قول بشر الحافى : « يقول أحدهم : توكلتُ على الله ، يكذب على الله ، لو توكَّل على الله رضى بما يفعل الله » .

وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلاً ؟ فقال : « إذا رضى بالله وكيلا » .

والراجح ما ذهب إليه ابن القيم : أن الرضا ثمرة التوكل ، ومَن فسَّر التوكل به فإنما فسَّره بأجلِّ ثمراته ، وأعظم فوائده ، فإنه إذا توكَّل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله .

قال : وكان شيخنا - رضى الله عنه - يقول : المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله ، والرضا بعده ، فمَن توكَّل على الله قبل الفعل ، ورضى بالمقضى له بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية . أو معنى هذا .

ومن لوازم الرضا وتوابعه : الفرح والروح [(١)] ، وهو ما روى فى حديث ابن مسعود مرفوعاً : « إن الله عَزَّ وجَلَّ بقسطه وعدله جعل الفرح والروح فى الرضا واليقين ، وجعل الغم والحزن فى السخط والشك » [(٢)] .

---

(١) انظر : حديثنا عن « الرضا » فى كتابنا « الإيمان والحياة » .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه راوٍ متهم ، كما فى مجمع الزوائد (٤/ ٧١) ، وربما كان من كلام ابن مسعود نفسه ، أو بعض السَّلَف .

إن المتوكل موقن أن تدبير الله خير له من تدبير نفسه ، وأنه أبداً فى كفاية الله تعالى وكفالته ووكالته ، وكفى بالله وكيلا ، وكفى بالله كفيلاً . ولهذا ألقى حموله وهمومه عند باب ربه فاستراح من الهم والعناء . وأنشد مع الشاعر :

سهرت أعين ونامت عيونُ ... فى أُمور تكون أو لا تكـــونُ

إن رباً كفاك بالأمس ما كا ... ن سيكفيك فى غدٍ ما يكـون

* *

● الأمـل :

٥ - ومن ثمرات التوكل : الأمل فى الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروه ، وانقشاع الغمة ، وانفراج الكربة ، وانتصار الحق على الباطل ، والهدى على الضلال ، والعدل على الظلم .

فالمتوكل على الله لا يعرف القنوط إلى قلبه سبيلا ، ولا يغلبه اليأس . فقد علَّمه القرآن أن القنوط من لوازم الضلال ، واليأس من توابع الكفر .

قال تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (١) .

وقال على لسان يعقوب : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

قال ذلك إبراهيم فى مقام إنجاب الشيخ الهرم بعد أن أصابه الكبر .

وقال ذلك يعقوب فى مقام البحث عن يوسف وأخيه بعد أن طال فراقه

---

(١) الحجر : ٥٦ (٢) يوسف : ٨٧

ليوسف ، وانقطاع أخباره عشرات السنين ، ولكنه لم يفقد الأمل ، وقال : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

إن المتوكل على الله يعلم أن المُلْكَ كله بيد خالقه ومدبر أمره ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، يؤتى المُلْك مَن يشاء ، وينزع المُلْك ممن يشاء ، ويعز مَن يشاء ويذل مَن يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير .

إن شاء أغنى الفقير ، وأفقر الغنى ، وقوَّى الضعيف ، وأضعف القوى ، ونصر المظلوم ، وأخذ الظالم ، وشفى المريض ، ويسَّر على المعسر ، وأعز الذليل ، وأذلَّ العزيز ، قد يفعل ذلك بأسباب معتادة معروفة ، وقد يفعله بأسباب غير مألوفة ، لا حَجْر على مشيئته ، ولا ينازعه أحد فى سلطانه . قد يستدرج الظالم ويُملى له سنين ، حتى يتوهم أن الله قد نسيه ! وقد يأخذه فى لمح البصر أو هو أقرب . وقد يغيث الملهوف ، وينفس عن المكروب ، من حيث لا يحتسب هو ولا يحتسب الناس من حوله .

ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يُغيِّر اللهُ من حالٍ إلى حال

إن دوام الحال من المحال ، وسيجعل الله بعد عُسْرٍ يُسرا ، وسيُطلِع بعد كل ليل فجرا .

ولرُبَّ نازلة يضيـــق بها الفتى ... ذرعاً ، وعند الله منها المخـــرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فُرِجَتْ ، وكنت أظنها لا تُفرج

إذا قال قائل : لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ، فنحن نقول : لا يأس مع التوكل ، ولا توكل مع اليأس (٢) .

وقد وجدنا النبى ﷺ أوسع الناس أملاً فى الغد ، ورجاءً فى النصر ، حتى فى يوم الهجرة ، وهو راحل من بلده ، مطارداً من قومه ، يقول لسراقة

---

(١) يوسف : ٨٣ (٢) انظر : فصل « الأمل » من كتابى « الإيمان والحياة » .

ابن مالك الذى يطارده رغبة فى جائزة قريش : « كيف بك إذا ألبسك الله سوارى كسرى » ؟ فيقول الرجل : كسرى بن هرمز ؟ ! فيقول : « نعم كسرى بن هرمز » .

ويقول لخبَّاب وقد جاءه يشكو من شدة ما يلقى من العذاب ، ويسأل أن يدعو الله على المشركين فيدمر عليهم ، ويريح المؤمنين من شرهم وأذاهم ، فيغضب النبى الكريم ، ويبين له ما حدث لمن قبلنا من المحن ، ثم يقول مُبشِّراً : « والذى نفسى بيده ليُتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

وقد تحقق كل ما بَشَّرَ به النبى ﷺ سراقة وخبابا .

فيا أيها المظلوم والمغلوب ، ويا أيها الملهوف والمكروب ، ويا أيها المجروح والمنكوب ، لا تيأس ، وإن توالت عليك الخطوب ، وسُدَّت فى وجهك الدروب ، فإن علام الغيوب ، وغفَّار الذنوب ، وستَّار العيوب ، ومقلِّب القلوب ، سيفرج عنك الكروب ، ويحقق لك المطلوب ، كما كشف الضر عن أيوب ، وردَّ يوسف على يعقوب .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

* * *

(١) الأنبياء ٨٣ - ٨٨